حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي ألفونس كار

نخاسة الأزهار

ما اجتزت سوق الأزهار مرة إلا شعرت بحزن شديد، كأني أتجول في سوق النخاسة حيث تقوم المساومة على الأجساد وتلقى العبودية طابعها المروع على وجه الانسان

يتمشى الأغنياء بين الأزاهر فيحدجونها بأنظارهم متفحصين أشكالها وصحتها وأعمارها. فاذا ما تمت الصفقة خرجت الزهرة المبيعة من سوق النخاسة لتتبع خطوات سيدها.

سيري وراء من اشتراك أيتها الزهرة التعسة. اذهبي اليه لتخدمي شهواته. زيني قصره بجمالك فلسوف ينزلك ثمين الآنية ويحوطك باطالس الأعشاب. سيكون مسكنك فخما. أيتها الزهرة، فودعي الشمس والهواء، ودعي الحرية فالعبودية فاتحة ذراعيها لتضمك إلى صدرها.

يا لشقاء هذه الأزهار! إنها تعرض أكواماً يلفحها الحر والقر فتذوى مهتوكة تحت نظرات الفاحشين من الناس

لقد مر البائع فارفعي رأسك أيتها الزهرة، ليراك منتصبة تملأك الفتوة نضارة، فأنت لنضارتك معروضة على المشترين

إن أكثر الأزهار المعروضة في سوق النخاسة تحني رأسها وقد ارتخت قوائمها فتلاعبت فيها أضعف النسمات. لقد رسمت الأسفار البعيدة عليها آثار الضنى. وكتب الشقاء على توجها آيات المذلة والاستعباد. وما تهتم هذه الزهرات بجمالها، وهي تعلم ما تحتم عليها من الخضوع لسيد مجهول يتحكم فيها.

لقد تسعد إحداها إذا اشترتها فتاة لتزين بها نافذتها فتجد الماء وتجد الهواء لتحيا وتطل عليها من وراء الأشجار أشعة الكوكب الذهبي يناجي فيها ابنته في كل صباح.

هنالك تسمع الزهرة تغريد أخيها الطير يمازجه نشيد الغادة بصوتها الحنون.

ما أسعد الزهرة التي تمر بها فتاة معلقة بذراع أمها فتحملها إلى غرفتها الطاهرة تجود بعطرها في الليل ممتزجاً بأحلام العذراء.

أما أنت أيتها الأزهار التي ينثرك الأغنياء في قصورهم في ليلة عيد، فما أشد ويلك وما أظلم الأفق الذي تستقبلين. املأي أجواء القصر بالعبير في ليلة واحدة لقاء أجر معين، فانك ستحملين من عيد إلى عيد حتى يرتعى السل صدرك الضعيف فتجودين بالحياة على المزابل بزفرة دامية

وأشد منك شقاء يازهرات الأعياد زهرة تشتريها سيدة مستبدة لاتطلب من الأزهار إلا أوائل أريجها حتى إذا تخدرت منها طرحتها إلى الخدم يجهزون عليها بعيدة عن الهواء في ظلمات الليالي

ويل لهذه الأزهار تهمس أنينها همساً فلا يسمع أحد بلواها، فهي مستعبدة صامتة لاتعرف إلا أن تحني رأسها وتندفع إلى الفناء

تقتطف الزهرة من حضن أمها وتؤخذ بالعنف من بين أخواتها وأصحابها، لتطرح حيث تجود بنضارتها وعبير صباها، فيا للجريمة لاعقاب عليها!

لقد منعت القوانين نخاسة السود ولكنها ما منعت نخاسة الأزهار

ليهتف المصلحون بصوت وجدانهم فما من سميع وقد مات جان جاك روسو وبرنار دي سان بيار. ولكن من نستصرخ وإلى من نتجه؟ أفليس أنصار الحق نفسهم المنادون بمنع النخاسة بين الناس هم الذين يلسلون تحت جنح الليل يتلهون بدوس الأزهار واقتلاع وريقاتها الطاهرة من توجها الضعيف ...؟

أفليست السلطة هي التي تسمح باقتلاع الأزهار من منابتها لتحمل إلى سحيق الأقطار حيث تعيش ولا أسرة لها لأن بذورها تطرح على أرض تخنقها وتواريها

* * *

مررت يوماً في تلك الساحة، فرأيت زنبقة رائعة الجمال يساوم عليها رجل هرم ألقت السنون غشاء على عينيه، وهو يصب نظراته على الوريقات البيضاء فتختلج ويمد يده إلى